ماذا يواجه شبان العصر؟

كاتب انجليزي يوجّه نداءه الى الشبان فيقول احتفظوا بروح الفن في عصر الآلة والحديد

اذا قلنا ان الميكانيكي في هذا العصر قد حلّ محلّ الصوفيّ ، وان عربة ايلو تدفعها آلة تحرق البترول ولا تجرّها خيول بجنحة ، نحن في الاجابة عن السؤال الذي توجنا به هذه المقالة لا نعدو تقرير الواقع المشاهد . لأن الحياة هي تعبير عن الذات، وكل جيل يرغب في التعبير عن ذاتيته بالطريقة التي توافقهُ وباللغة التي يختارها . فكلُّ انسان يجب ان يحيا الحياة الخاصة بعصره

لنصرف النظر عن البخار والكهربائية ولنحصرهُ في الآلة التي تسير بحرق البترول مثلة لعصرنا . ان استنباط البخار وتطبيقهُ في وسائل الانتقال مكّن الناس من الانتقال جماهير جماهير ، بالقطار والباخرة . اما الآلة البترولية فمكّنت الناس من الانتقال افراداً . فكل فرد يستطيع ان يقتني سيارة يذهب بها اين يشاء . وقريباً قد يصبح قادراً على ان يقتني طيارة يجوب بها رحاب الفضاء . وقد مرّت بالنقل الفردي اربعة ادوار تلخص فيما يأتي

(١) دور الحصان (٢) دور العجلة (البسكليت) (٣) دور السيارة (٤) دور الطيارة

وقد مرّت بي هذه الادوار الاربعة فاخذت نصيبي من الثلاثة الاولى ولم ارض بعدُ عن الرابعة لانها تقترن في ذهني بفظائع الحرب وويلاتها . وهذا رغماً عن الشعور الذي تولاني حين رأيت احدى مجارب الطيران الاولى في فرنسا . ما اعظم ذلك الشعور وما ابهتهُ على العظمة والمجد ! الانسان — الاله المجنح — يحيينا من الفضاء !

***

كان ابي طيباً بسيطاً في الارياف . وكان يسير الى مرضاهُ في القرى المجاورة لقريته اما مشياً على الاقدام او في عربة يجرّها حصان . وكان الناس الذين يستدعونهُ لعيادتهم كثاراً فكان يقضي نصف وقته على الطريق . فكانت تتاح لهُ الفرصة لرؤية كثير مما لا يراهُ طبيب اليوم . كان يراقب الظلال والاشجار والازهار والعصافير والجو واحواله المتقلبة . كان وقتهُ يتسع له ليتصل بمحيطه . كان يطرب للشعر ويكثر من الاستشهاد به وهو قابض

على اغنة حصانه . اني لا استطيع ان اتصور رجلاً قابضاً على دولاب سيارة مستشهداً بمختارات شعرية ، من الشعر الممتاز على الأقل

لاريب في ان اتقان ابي كان ابطأ جداً من اتقان طبيب اليوم . ولكنهُ كان يستطيع ان يعدو السلام الى الدور الثالث من غير ان يلهث تعباً . كان نشيط الجسم والعقل ، وعلى كثرة اشغالهِ كان يتسع له الوقت — او بالحري كان يخلق متسعاً من الوقت — للقضاء بين العائلات وللعب الكركت وللصيد وللطالعة ولكتابة الاشعار ولتعلم اللغة الالمانية. كان يستطيع ان يسرع من غير ان يفقد اتزانهُ او سلامهُ الداخلي . كان هادىء الطبع مستقيم الرأي جليّهُ . على انهُ لو كان يحيا الآن في عصر ماعت فيهِ الآراء بحجة التساهل لكان يدعى متعصباً . ان امثالهُ اليوم قلائل لانهُ جمع في نفسهِ صفات الصانع والفنان معاً

واستنبطت العجلة فاهدى الي ّ ابي واحدة منها . وكانت العجلة الآلة الاولى التي علمتني معنى السرعة . ولكنها كانت سرعة محدودة تنحصر في الهبوط بالعجلة في طريق منحدر من قمة اكمة او السير بها مدة خمس دقائق بسرعة عشرين ميلاً في الساعة . وكانت كذلك الباعث الاول الذي حرّك في نفسي الميل الى المغامرة والاستكشاف . ما اكثر الطرق غير المطروقة التي استكشفتها منطياً عجلتي ! ما اكثر البلدان المجاورة التي لم تكن موجودة في عالمي فكشفت عنها وغزوتها ! اكثيراً ما كنا نذهب جماعات جماعات الى القرى المجاورة لزيارة كنيسة قديمة او اثر مشهور . ولا ازال اذكر اني اقدمت مرة على رحلة ساقتها خمسون ميلاً مع زميل اسكتلندي لي . فلما خرجت من البلدة قال لي « لتتناقش » فدهشت لاني كنت مقتنعاً بان اسير على عجلتي مشاهداً ما يحف بالطريق من جمال الطبيعة . فقلت « ولمَ المناقشة » فقال « اني اميل الى المناقشة في اثناء رحلة من الرحلات وارغب في ان تدوم من اول الرحلة الى آخرها . فلنتناقش في مسألة حرية الارادة » ولكني لم اكن اميل الى المناقشة من صغري ولم اشأ حينئذٍ ان اعالج المذاهب الفلسفية العويصة في رحلة غايتها النزهة وترويح الخاطر . فاطبقت فمي واسرعت في السير محاول ان يتبعني فتركه التعب مضنىً لا يستطيع الكلام

ولكن العبرة في عقل ذلك الشاب الاسكتلندي . لقد كان شخصية ممتطية آلة ولكنهُ كان سيداً لها حتى انهُ اراد ان يتناقش في ما وراء الطبيعة . كان سيداً لا عبداً لانهُ وجد فيها وسيلة مفيدة للاتقال فلم يدعها تقيد عقلهُ فلا يرى الا منطقة من الطريق عرضها نصف قدم او اقل ، لا تفيد الا لسير العجلة تنهب الارض نهباً

ثم استنبط الاتوموبيل . وكنت قد تزوجت . وكنت اعيش مع زوجتي في بلدة منعزلة

في الريف. وكانت زوجتي ضعيفة يهكها المشي أو الركوب. وكنت قد وفرت قليلاً من المال فابتعت سيارة اذا قستها بمقاييس اليوم نبذتها حاقراً ضعفها وقلة اسطوانتها وقبح شكلها. ولكننا كنا فيها كطفلين يلعبان ويمرحان. فكنا نذهب بها لاستكشاف القرى التي تجاور ناقريبة آناً وبعيدة أخرى. كانت السيارة وسيلة جديدة للانتقال فاستعملناها لتوسيع افق نظرنا الى الحياة. افادتنا السيارة كما يجب ان تفيدنا كل آلة. خففت عن زوجتي عبء المشي وتعبهُ ولكنها مكنت روحها من البحث بواسطتها — عن مجالي الجمال !

كانت طرق تلك الايام هادئة لا تعج بالسيارات ولا تطنُّ باصواتها المزعجة. فلا السرعة ولا السبق كانا الغاية التي يرمي اليها القابض على الدولاب. كنا نسير بسرعة ٢٥ ميلاً في الساعة وكان ذلك يكفينا. وكنا نقف حيث شئنا ونجلس ونحدق بمظاهر الطبيعة وآيات الجمال. كان الانسان يستطيع حينئذ ان يخلو الى نفسه في الطريق

اما الآن فنملك سيارتين تستطيع كل منهما ان تجري ستين ميلاً في الساعة ولنا سائق خاص يسوقنا باحداهما حيث نشاء. فاذا قسنا احداهما بسيارتنا الاولى وجدنا في الجديدة كل اسباب الراحة والرفاهة ودقة الصنعة واتقانها. ولكني أؤكد لك ايها القارىء اننا لا نجني من ركوبها من السرور المحض ما كنا نجنيه من امتطاء سيارتنا الاولى. لان تقاليد السير قد تغيَّرت. كانت الطريق اولاً للماشي وللعاشية ولكنها اليوم للآلات ! كان الطريق اولاً ممراً عاماً يفضي بك الى معابد الجمال الريفي ولكنها اليوم سطوح معبدة للسرعة !

***

كثيراً ما اجلس على طرف قرية صغيرة او مدخل حرجة واتأمل. الروح العصرية والطرق العصرية تمرُّ بنا سراعاً. تملأ الاماكن القديمة الهادئة بالضجة الصاخبة والقلق الميكانيكي. ترى السيارات الخاصة وسيارات الاجرة وسيارات النقل والعجلات كلها تمرُّ بك سراعاً كتيار النهر المتدفق ولكن الى اين ؟ ألى البحر ذاهبة هي لتسبح اصحابها بجمال جلاله ام الى حديقة جميلة في الريف لتنعم بآيات الراحة والتأمل في ظلالها ؟ ان هذه الرحلات ميكانيكية كالآلات التي تسير بها. السرعة والضجة والسبق هي الشيء المطلوب. يجب ان تسبق غيرك على الطريق. يجب ان تبين براعتك في السوق السريع. ان الدمقراطية على الطريق ولكن الدمقراطية غير الاشتراكية. فالرجل الذي يربح خمسين جنيهاً في الشهر يريد ان يجاري بسيارته الصغيرة رجلاً يربح الوفاً من الجنيهات في سيارته الفخمة القوية. حتى الآلة تستطيع ان تتشاءم !

هذه هي الحال . السرعة غاية تطلب لذاتها . والشباب قابض على زمام السيارة، وعلى الطريق الوف السيارات

هذا هو الواقع ! فما معناهُ ؟ الى ماذا يسوقنا ؟ السيطر على الآلات فنستعبدها ام تسيطر علينا فنكون عبيدها الطائعين ؟ ماذا يفعل بها الشباب وماذا ينتظر ان يفعل ؟ هل يقضي المولع بالاسلكية حياتهُ يصغي الى موسيقى ابدعها رجل آخر؟ ألا يحاول ان يبدع موسيقى يعبر بها هو عما يخالج نفسهُ ؟ ارضى ان يظل طول حياته مقتفياً وحاكياً بدلاً من ان يكون رائداً أو مبدعاً ؟ ايسع ان يبقى عقلاً متحجراً يدير آلة صنعتها آلات اخرى ؟

شجاعة ايها الشبان ! فالعصر يستدعي شجاعة عظيمة . انا اعلم انهُ لا بدَّ من شجاعة فائقة لمن يسوق سيارة سريعة او يقبض على زمام طيارة تدور في محركاتها قوة مئات الاحصنة . انا احترم هذه الشجاعة واعجب بها . ولكن الا يجوز ان تستولي هذه الشجاعة على هيكل خالٍ من الشعور كالآلات ذاتها تستطيع ان تقتل وتمضي في سيرها تاركة وراءها اشلاء دامية كانت حية قبلها حياتها ؟ ان هذا يحدث كلَّ يوم مراراً في بلاد عامرة متمدنة ؟ ! ان المفتون بالسرعة يرتكب القتل ثم يسرع في فراره من وجه العدالة في غير رجولة او شرف

الشباب ، يثور ويحتج ، ويطالب الجديد للتعبير عن ذاتيته ، وما من عصر بلغت فيه ثورة الشباب ما بلغتهُ في هذا العصر . ما من عصر بلغ فيه حبُّ الانطلاق من قيود التقاليد القديمة ما بلغهُ الآن . ان على فم الشباب عبارة قيصر . « جئت . رأيت . انتصرت »

وشباب العصر عمليٌّ يسأل في كل موقف ما النتيجة وعن كل عمل هل يفضي الى النجاح. انهُ يطلب النتائج ولا يقنع بالنظريات . انهُ يعبّر عن ذاتيته بالحركة وخصوصاً الحركة السريعة. بطلهُ ملك السرعة في السباق ، والرياضي الذي يفوز على غيره في الالعاب، ورجل الاعمال الذي يوسع اعمالهُ حتى تضم الوف العمال وعشرات الملايين من الجنيهات ،والمهندس البارع الذي يصنع الطيارة او يطير بها مسافة شاسعة من غير ان يحطَّ على الارض. وهذه الاتجاه دليل محبٍّ على ميل الشباب . فكل هذا يتطلب شجاعة واستعداداً وضبطاً للنفس . انها شجاعة غير مشربة برواتح المواخير

اني أرى في شباب العصر صحة وحكمة خاصة به . فمسائل الجنس لا تقلق روحهُ كما — نحن الشبان — من ثلاثين سنة مأخوذين بما في الحب من روعة وجمال . ولكنَّ حبنا لم يكن منحصراً على المرأة بل كان يشمل الحياة ! ولا بدَّ للانسان من ان يكون فناناً لا بدَّ من ان يكون روح الفن متغلغلاً في عقله ونفسه لكي يتمكن من الهيام بالحياة والبقاء هائماً بها

وماذا تريد بالفنان عند اطلاق المعنى ؟ طبعاً لا نقصد رجلاً مسترسل الشعر ينضوي تحت لواء طائفة خاصة لها طرق خاصة للتعبير عن معاني الحياة كطوائف التصوير المختلفة. انما الفنان في رأيي هو كل انسان يحتفظ في ادوار حياته المختلفة بحيوية الطفل وشدة تأثره وحب استطلاعه . هو الذي يشعر بالأسرار التي تحيط به. قد يكون عالماً او بنائياً او طبيباً او راعياً او مصوراً او مثالاً . انهُ لا يكتفي بأن يرى وجهة واحدة من ماسة الحياة — انهُ لا يكتفي بأن يرى في الحياة سرعة — لا اكثر. وانهُ سريع التأثر بكل المؤثرات وبمختلف معاني الجمال. في نفسه مصدر للوحي يرفعهُ عن مستوى الميكانيكي الحاذق

***

فلنأخذ الميكانيكي والفنان ولنوازن بينهما ، لأن مسألة الفرق بينهما هي المسألة التي تثير شبان العصر وتقلقهم، فعليهم ان يختاروا احد هذين الرجلين . انكتفي بأن نكون عبّاد الآلات ، خلائق السرعة والصور المتحركة والصحافة الصفراء ، او علينا ان ثور على هذه الثقافة التي تخرج « بالجملة » من معامل الثقافة، مؤثرين ان نصبغها بشيء من الدم الذي كان يجري في عروق الخالدين !

وعندي ان المشكلة العظمى التي يواجهها شبان العصر هو الجمع بين الميكانيكي والفنان في حيّز شخصية واحدة . وحينئذٍ لا بدَّ للفنان من ان يسيطر على الميكانيكي . واذا لم يفعل ذلك حولتنا السرعة والضجة والسرعة الى عبيد ميكانيكيين . فعلى الشاب ان يصرخ « اريد ان املك زمام نفسي »رغم ما يدعيه علماء النفس من عجزهم عن تحديدها

وهل في عصرنا من يمثل هذه النزعة ويجسمها — هل فيهِ من يجمع في شخصه بين الميكانيكي الحاذق والفنان المبدع ؟ « لندبرغ » هو الجواب ! انهُ يمثل الشاب المجنّح جريئاً مقداماً . ليس لندبرغ قطعة من آلة يسير بسيرها . انما تصوّر شخصاً طائراً حين يذكر اسمهُ لا طيارة محلقة في الفضاء. انهُ يطير وفي طيرانه شرارة من الوحي. انهُ «الشاب» يشير اشارته البليغة الى الجوزاء ، اشارة شاعر ، لا اشارة ميكانيكي

ولكن الآلات تحيط بنا من كل جهة، في ليلنا ونهارنا ، في دورنا ومكاتبنا وشوارعنا وملاهينا بل وفي كنائسنا تشدُّ علينا منافذ انفسنا وتأخذ علينا طرق التفكير فنستسلم لها استسلامنا لأمر واقع فنقول : « ما اعجب كل هذا ! الانسان العالم يخلص جماهير العمال من العمل المضني . لقد وسع افق نظره حتى بلغ الدم القاصية. انهُ يستطيع ان يطير الى القطبين . ويستطيع ان يجلس في لندن ويصغي الى الصين وقريباً يستطيع ان يراها . ان الانسان اخذ يصير روبداً روبداً آلهاً صغيراً . ولا بدَّ ان تمكن الآلة في المستقبل ، من ان

تقضي لهُ كل ما يحتاج اليهِ، حتى لقد تلبسهُ وتخلق لهُ في الصباح. ولا بدَّ ان يكتشف عن عجائب جديدة أخرى . سيجيء وقت نعتمد فيهِ على الضمام المركب. وقد يجيء يوم نتصرف فيهِ على الموت»

قد يتحقق كل هذا ولكن جاء في كتب الحكمة القديمة ان رجلاً جاء ليربح العالم بأسره فخسر نفسهُ . اتقبل ان نجعل روح الآلة طاغية تحيي لهُ والهاً نعبده ؟ الخطر كل الخطر ان نصبح عبيد الآلة من غير ان ندري . ففي كلّ المدن العظيمة الوف الوف من الناس عبيد آلات وهم لا يشعرون

هذا في رأيي مشكلة الشباب . فقد ينادي الشاب فرحاً : لا بدَّ ان اسير بسرعة خمسمائة ميل في الساعة . لا بدَّ ان اصل الى القمر . سأجعل جمع المال غايتي . وبعد كلّ هذا ... كل ما تعمله أيها الشاب يتوقف على الروح الذي تعمله بهِ . اتقبل على عملك كالندبرغ ، او تتقدم اليهِ كقطعة متدفقة من الانسانية لا تعلم من اين اتت ولا الى اين تقصد ؟ ومتى وصلت الى القمر فماذا يمثل لك القمر اذا لم تأخذ اليهِ الاّ عقلاً ضيقاً وخواً تحيط بهِ كرة من الفولاذ!

فلتخط ما للآلة للآلة . وما للانسان للانسان . يجب أن ندرك ان الخدمة هي غرض كل عجائبنا الصناعية . قد تكون احدث هذه العجائب غراموفوناً بالغاً غاية الدقة والاتقان ولكن ماذا نفعل بهِ ؟ انستعمله لسماع اغاني شوبرت الحلوة الاخاذة الخالدة ؟ اذاً ما قيمة الآلة لولا شوبرت! انا نحني باحترام واعجاب امام الرجال الذين يكتشفون ويبدعون لان روح الفن متغلغل في نفوسهم انما نحن — الجمهور — نعمى عن روح الفنان حين نشاهد الالعوبة الميكانيكية!

لي صديق فتى اهديت اليهِ — خطأً — موتوسيكلاً . فصار حتى ان الموتوسيكلات لا تهمهُ . ولما الححت عليهِ في السؤال عما يريد ابى الجواب فقالت لي عمتهُ انَّ مكتباً (طبب وتر) يكون اقرب جداً الى ذوقهِ من موتوسيكل . فاهديت اليهِ مكتباً — ولست الآلة ! — ولكن الفتى سيطر عليها واخضعها لمطالبهِ فقط . وكان مولعاً بالشعر فسألتهُ ذات يوم هل ينظم على المكتاب . فقال «كلاّ» لانهُ كان يفضل ان يحتفظ بروح الفن مترفعاً عن ضجة الآلة . فكان يكتب ما ينظمهُ بيده وبعد ما يفرغ من تنقيحهِ كان يطبعهُ على المكتاب . وعلمت بعدئذ انهُ مولع بالازهار وانهُ يعنى بحديقة الازهار في بيتهِ صباح مساء

على الشباب ان يختار — أيختار الحركة حاسباً ان كل حركة دليل على الحياة ؟ والسرعة ظانّاً ان كل سرعة ارتقاء ؟ هل يطير على اجنحة الوحي كالندبرغ او يندفع هنا وهناك متوهماً انهُ يعمل شيئاً ؟ أيكتفي الشاب العصري بأن يكون ميكانيكياً حاذقاً يحسن ادارة الآلات واستعمالها ام يؤثر ان يكون الرجل الفني الذي يحلم احلاماً ويرى رؤى ، ويظل يحلم ويرى حتى يحول احلامهُ ورؤاه الى الواقع الملموس ؟